مجلة كلية الآداب. جامعة الإسكندرية . المجلد ٧١ . العدد ١٠٦ .

الجملة القرآنية المقلوبة

أ.د. مجدي محمد حسين

٢٠٢١م

ملخص البحث

يتناول البحث في عجالة ظاهرة قرآنية يمكن وصفها بالغريبة بأن تأتي الجملة على غير المعهود من الكلام والترتيب، فالأصل في الكلام أن يكون مرتبًا لتتحقق منه الإفادة، إلا أن النص القرآني يتسم بسمات لا يوجد مثلها في العربية النموذجية.

وقد تكون الجملة المقلوبة في باب التشبيه أو الجملة الاسمية والفعلية والمركب الإضافي، أو يكون بين الجمل ذاتها بحيث تحتاج إلى إعادة ترتيب وبناء.

مقدمـــة

يتردد الجذر (ق ل ب) في المعاجم وكتب الصرف وكتب البلاغة واللغة والقراءات: فلدينا في الصرف درس يسمى "بالقلب والإبدال" خاص بقلب الحروف وإبدالها وعلى الأخص حروف العلة، ودرس القلب المكاني وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض مثل: (حادي) مقلوب (واحد) وقالوا منه (أشياء) أصله (شيئاء) وهذا النوع شائع في الدارجة فيقال (معلقة) في ملعقة) و(أهبل) في (أبله) ومثل (أنارب، ومرسح، وزنجبيل ...)، وفي البلاغة درس يسمى بـ (التشبيه المقلوب).

والفعل (جذب) ينطق في لغة أخرى (جبذ) و(يأس) تقلب إلى (أيس)، وقد قرأ ابن مسعود: (من كل فج معيق) بدلًا من (عميق) (**الحج: ٢٧**)، وقرأ الحسن (من الصواقع) بدلًا من (الصواعق) (**البقرة: ١٩**)، وفي البلاغة كذلك درس يسمى بـ"القلب"، أو "العكس اللفظي"، وهو أن يُقرأ الكلام من آخره إلى أوله كما يُقرأ من أوله إلى آخره نحو: (**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ**) (يس: ٤٠)، (**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**) (المدثر: ٣).

ويمكن أن يضم إلى القلب ما يتعلق بالمركب الإضافي وما يسمى بالأضداد وتلك الجمل التي تحتاج إلى إعادة ترتيب. وكذا التي بها تقديم وتأخير والجمل التي يتقدم بعضها على بعض، وذلك كما ستبينه صفحات هذا البحث.

الجملة الاسمية:

وقد تأتي هذه الجملة في باب التشبيه نحو: (**إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**) (البقرة: ٢٧٥) وهو قول الذين يأكلون الربا، والسياق يقتضي أن يقولوا: "**إنما الربا مثل البيع**" لأن الكلام في الربا ولأن البيع هو الأصل، فهو نوع من التشبيه المقلوب في كتب البلاغة، وربما لم يحسن هؤلاء التعبير ونقل القرآن كلامهم كما هو دون تصحيح بعيدًا عن تأويلات المفسرين.

وقريب من هذه السورة قوله تعالى: (**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ**) (النحل: ١٧). فقد قال أهل البيان إن المشبه به يجب أن يكون أقوى وأتم في وجه الشبه من المشبه ليلتحق الأضعف بالأقوى في وجه الشبه كقولك: (وجهك كالقمر) ولا ريب أن الخالق أقوىمن غير الخالق فكان حق النظم في الظاهر أن يقال: أفم نلا يخلق كمن يخلق.

ومنه كذلك قول أم مريم –على الغالب– (**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**) (مريم: ٣٦) فإنها أرادت أن تقول: (وليس الأنثى كالذكر) الذي تمنته ووهبته لخدمة البيت ويجب أن يكون المشبه به أقوى من المشبه فهل كانت الصدمة ومعاناة الوضع من الأسباب التي جعلتها لم تحسن التعبير عن مرادها؟

ومن الجمل الاسمية التي وقع فيها هذا النوع من القلب قوله: (**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**) (القصص: ٧٦)، فالمتبادر إلى الفهم أن العصبة هي التي تنوء بحمل هذه المفاتح –أي يثقل عليها حملها– وليس العكس لأن المفاتح محمولة وليست حاملة، وقيل في الآية على هذا قلب عند أبي عبيدة ومن تبعه، والأصل (تنوء العصبة بها) أي: تنهض.

ومن ذلك قوله: (**وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ**) (الرعد: ٥) لأن الأعناق هي التي في الأغلال ولا عكس، ومنه قول رؤبة:

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أي كأن لون سمائه لون أرضه فعكس التشبيه، وقد تكرر هذا التركيب في القرآن في قوله: (**إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ**) (غافر: ٧١)، وقوله: (**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا**) (يس: ٨).

ويمكن أن نضم إليه قوله: (**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**) (الإخلاص: ٤) فالكلام بعد إعادة الترتيب (ولم يكن أحد كفوًا له) فحدث نوع من التقديم والتأخير لأجل الفاصلة.

الجملة الفعلية:

قال بعضهم في قوله: (**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ**) (القصص: ١٢) إن فيها تقديمًا وتأخيرًا أو قلبًا، والمعنى: (وحرمناه على المراضع) لأنه طفل لم يصل إلى سن التحريم، قال الزركشي: ومعلوم أن التحريم لا يقع إلا على المكلَّف، فالمعنى: (وحرمنا على المراضع أن ترضعه)، ووجه تحريم إرضاعه عليهن ألا يقبل إرضاعهن حتى يرد إلى أمه.

ومن هذا قوله: (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا**) (الأنعام: ١٢٣) فكأن المعنى: (جعلنا مجرميها أكابر) ليستقيم الكلام ففيها تقديم وتأخير وكأننا أمام جملة مقلوبة.

ومنه قوله (**لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ**) (البقرة: ١٨٨) الجملة بعد إعادة ترتيبها يصير التقدير: (لتأكلوا أموال فريق من الناس) فالأموال هي المأكولة وليس الفريق.

قال تعالى: (**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**) (الفرقان: ٧٤) يبدو أنهم أرادوا أن يقولوا: (واجعلنا للمتقين أئمة) ليطابق الجمع الجمع ويوافقه، وقيل إنه من الكلام المقلوب وأن المعنى: (واجعل المتقين لنا إمامًا) أو (أئمة)، وبه قال مجاهد.

(**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ**) (الأحقاف: ٢٠) قال الزمخشري: وغيره من العلماء: إن في التركيب قلبًا فيجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم "عرضت الناقة على الحوض" يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا ومنه قوله في موضع آخر: (**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا**) (غافر: ٤٦)، وكذا قوله: (**وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ**) (آل عمران: ٤٠) بدليل (**وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**) (مريم: ٨).

قال تعالى: (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**) (الفرقان: ٤٣) وانظر (الجاثية: ٢٣)، قيل هي جملة مقلوبة أو بها تقديم وتأخير، فهواه هو المتخذ وإلهه هو المفعول الثاني وحقه التأخير، أي: (أرأيت من اتخذ هواه إلهه).

ويمكن أن نوسع الدائرة ونضم إلى ما سبق تلك الجمل التي يقدر فيها حرف نفي محذوف ليتضح المعنى، وفي المقابل تلك التي يقال فيها بزيادة هذا الحرف لذات السبب، فمن الأول (**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا**) (النساء: ١٧٦) أي (ألا تضلوا)، (**يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا**) (النور: ١٧) التقدير: (لئلا تعودوا)، (**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ**) (الحج: ٦٥)، أي: (لئلا تقع)، ومن الثاني: (**مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ**) (الأعراف: ١٢) المعنى: (مان منعك أن

تسجد) كما صرح به في موضع آخر: (**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**) (ص ٧٥)، وكذا قوله: (**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ**) (الحديد: ٢٩) التقدير: (ليعلم) فهذا هو المطلوب.

الأضـداد:

وهي تلك الألفاظ التي ترد بمعنيين متضادين وفقما يطلب السياق ويحتم أحيانًا، مثل لفظة **(وراء)** التي وردت في مواضع يحتمل أن يكون المراد المعنى المضاد أي (أمام) نحو: (**وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) (الكهف: ٧٩)، وهذا يعني أنهم تجاوزوا هذا الملك وصار خلفهم فهم في مأمن منه، فلما أقدم على فعلته تلك بعد أن صار الملك وراءهم؟! فحلًا للإشكال قالوا **(وراءهم)** بمعنى (أمامهم) فهم لم يتجاوزوه وإلا ما كان هناك داعٍ لخرق السفينة لو كان الملك بالفعل وراءهم.

قال تعالى: (**مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ**) (إبراهيم: ١٦) تتحدث الآية عن مشهد من مشاهد يوم القيامة وحال الكافر وقتها، ولكن كيف تكون جهنم وراءه في هذا اليوم؟ أي خلفه؛ لذا كان هذا المشهد يحتاج إلى إيضاح وبيان، فقيل **(وراء)** من ألفاظ الأضداد أي اللفظة الواحدة التي تأتي بمعنيين متضادين، وعلى هذا يكون معناها **(من قدامه)** قال بذلك أبو عبيدة والزجاج والطبري وقطرب وجماعة، وعلى ذلك قوله:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا نحني عليها الأصابع

فإذا كانت جهنم أمامه وهو البدهي تكون الجملة كأنها مقلوبة.

الجملة المقلوبة:

قد يكون هذا القلب على مستوى الجمل ذاتها ولا يقتصر الأمر على أن تكون الجملة مقلوبة وحدها، وهي مسألة تتعلق بالتقديم والتأخير وإعادة الترتيب.

يمكن أن يكون منه قوله: (**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**) (النحل: ٩٨) فليس المطلوب أن يستعيذ بالله بعد أن يشرع في القراءة كما قد يفيد النص، ولكن هذه الاستعاذة تكون سابقة على القراءة كما هو معلوم بل ومعمول به، فكانت هناك توجيهات كثيرة منها أن التقدير: (فاستعذ بالله إذا قرأت القرآن) وكأن الجملتين في حاجة إلى إعادة ترتيب وبهما تقديم وتأخير.

شبيه بهذه الآية قوله: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**) (المائدة: ٦) فمن ضمن ما قالوا التقدير: (فاغسلوا وجوهكم إذا قمتم إلى الصلاة) لأن الوضوء –كما هو معلوم– سابق على الصلاة وشرط صحتها فلا يكون بعد القيام إلى الصلاة كما يفيد النص.

ومن ذلك قوله: (**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا**) (هود: ٧١) قد يكون التقدير: (فبشرناها بإسحاق فضحكت) تعبيرًا عن فرحتها وسرورها بهذه البشرى بخلاف ما يفيده النص من أن هذه البشرى كانت نتيجة ضحكها، ولا يستقيم أن تكون امرأة إبراهيم صدر منها الضحك أولًا بدون سبب ظاهر ولا يليق أن تضحك في وجود ضيف إبراهيم وكانت قائمة على خدمتهم.

قال تعالى: (**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ**) (الأعراف: ٤) مما لم يُختلف عليه أن (الفاء) في الآية للعطف، والعطف بالفاء يقتضي الترتيب مع التعقيب، فلابد أن يقع الأول ثم الثاني ولا يكون العكس، ولكن

سياق الآية يفيد خلاف ذلك فقوله (**أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا**) فمجيء البأس يسبق الإهلاك ويكون سببًا له ومن مقدماته، فكأننا أمام جمل مقلوبة تحتاج إلى إعادة ترتيب.

قال تعالى: (**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**) (آل عمران: ١١٠) من الطبيعي أن يكون الإيمان بالله أولًا ثم يليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم يكون الإيمان بعد ذلك، ولا تلتفت لمن يقول لك: إن الواو لا تفيد ترتيبًا، فالواو لا تملك من أمرها شيئًا والمتكلم هو الذي يرتب الجمل ولا تستطيع الواو أن تمتنع عن الترتيب لو أراد صاحب النص (كنتم خير أمة أخرجت للناس تؤمنون بالله وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)، (**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى**) (طه: ٦٧) فحق الكلام: (فأوجس موسى في نفسه خيفة) فقدم الضمير على ما يفسره، وهذا التركيب على هذا النحو جاء مخالفًا للبناء المعهود للجملة العربية، وهذا نتبينه من خلال المثال، فلو قال مثلًا: (وضع في حقيبته كتابًا محمد) بدلًا من (وضع محمد كتابًا في حقيبته) لكانت العبارة مشوشة واحتاجت إلى إعادة ترتيب، ولكن كان من الضروري مراعاة الفاصلة حتى ولو اصطدمت بالمقررات اللغوية.

المركب الإضافي:

قال تعالى: (**فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) (الحج: ٥٦) قوله (جنات النعيم) تركيب إسنادي مقلوب، فالذي يتسق مع الفهم: (نعيم الجنات) ولكن ربما كان هذا التركيب الإسنادي المقلوب أكثر موسيقية مع ما قبلها وما بعدها، وقد تكرر هذا التركيب في كل سور القرآن المكية منها والمدنية نحو:

(**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) (المائدة: ٦٥)، (**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) (يونس: ٩)، (**وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ**) (الشعراء: ٨٥)، (**لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ**) (لقمان:٨).

وشبيه بهذا المركب الإضافي (جنات النعيم) المركب [عقبى الدار]: (**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**) (الرعد: ٢٢) الذي تكرر بذات السورة في ثلاثة مواضع لأسباب تتصل بالفاصلة: (**٢٤، ٣٥، ٤٢**) فهذا تركيب مقلوب، وإنما هو (دار العقبى).

الخاتـمـة

أوقفتنا هذه الصفحات على ظاهرة قرآنية غريبة وهي الجملة المقلوبةا لتي تحتاج إلى إعادة بناء وترتيب، والقلب درس يتردد في المعاجم وكتب البلاغة والصرف وكتب التفاسير ويقع على مستوى الكلمة والجملة وعلى مستوى الجمل فيما بينها، كما يتحقق في المركب الإضافي وما يسمى بالأضداد.

وهذا معناه أن الجملة قد تأتي في القرآن على غير المعهود من الكلام والترتيب، فالأصل في الكلام أن يكون مرتبًا لتتحقق منه الإفادة؛ إلا أن النص القرآني يتسم بسمات لا يوجد مثلها في العربية النموذجية.

المحتويـات

- مقدمة.
- الجملة الاسمية.
- الجملة الفعلية.
- الأضداد.
- الجمل المقلوبة.
- المركب الإضافي.
- الخاتمة.